بَصَائِرُ من سُورة الأَنْفَال المبَاركة

دُرُوسٌ اجْتماعِيَّةٌ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

القاها في المركز الاسلامي في انجلترا

د. علي رمضان الأوسي

(٣)

حكم الأسير:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة الانفال: ٦٥ - ٧١].

تحدثت الآيات السابقة عن الاستعدادات القتالية أمام العدو واشارت الى ضرورة الانفاق الحربي في سبيل الله، وألا تفوتكم فرص السلام ان حصلت فبادروا اليها فإعداد القوة هو من اجل ارهاب العدو وليس للقتل فحسب، وقد

ذكرت بنعمة تأليف القلوب التي هي أحد أسباب قوة الصف المؤمن الى جانب التأييدات الالهية.

وهنا تتعرض الآيات القرآنية الى بعض الاحكام الخاصة بأسرى الحرب وقبل ان تبين ذلك تعرضت الى:

الحث على القتال (الاعلام الحربي):

وهنا يخاطب القرآن الكريم النبيﷺ بشكل مباشر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ ﴾ والتحريض هو الحث وتحريك الهمة لأمر ما كالقتال بهدف رفع المعنويات من خلال الحماسة الحربية والخطب التي تكشف الغوامض وتبين الهدف الذي يواجه من أجله المؤمنون تحديات الاعداء.

فمسألة الإعلام والحث على مواجهة العدو وعدم الانكسار والهزيمة يدخل ذلك كله ضمن توفير الاستعدادات القتالية والقوة لارهاب عدو الله وعدو المؤمنين.

قاعدة قتالية:

(إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ) فالمؤمنون الصابرون ذوو الاستقامة والثبات يمكنهم ان يواجهوا عشرات أمثالهم فلو كانوا عشرين غلبوا مئتين (وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ) فمهما كان العدد صغر أو عظم فالقاعدة ماضية لا تتخلف فعلى المؤمنين الا ينتظروا تكافؤ الاعداد حتى يقاتلوا فهنا أمر إلهي بعدم الفرار من المعركة ان كان اعداد الكافرين عشرة أمثال المقاتلين المؤمنين الصابرين.

سبب في الانتصار والغلبة:

(بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ) وهم الاعداء الكافرون، فالباء سببية اذ الكفار لا يفقهون الحقيقة انما ينطلقون لاهداف محدودة في دار الدنيا وربما لطموحات تمجد أشخاصاً وتكرس حالات ضيقة بعكس المؤمنين الذين صدّقوا بالغيب وفهموا ان الحياة عابرة وهي طريق الى الدار الحيوان (الآخرة) حيث الاقامة الدائمة، وهذه المعرفة تقضي على مواطن الضعف والخوار في الانسان وتثبت المؤمنين فهم يعيشون اهدافاً اعظم وأوسع

مما عليه غيرهم.

قاعدة قتالية أخرى:

(الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

روي عن ابن عباس: (كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً ثم لما شق عليهم نسخ وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً).

فلما شق عليهم ان يواجه الواحد من المؤمنين الصابرين عشرة من الاعداء وتغيرت المصلحة في ذلك خفف الله عنهم ورفع تلك المشقة فرحمهم في أمر القتال فجاءت هذه القاعدة الثانية ان يواجه الواحد منكم الاثنين منهم ولا ينبغي الفرار، وهذا يتم بلطف من الله وتيسيره (بأذن الله) وهنا يرغّب الله المؤمنين الصابرين لتثبيتهم في المعركة فمن كان الله معه لا يُهزم ولا يُغلب (والله مع الصابرين).

دعوى النسخ:

ذكر الشيخ الطوسي رحمه الله ان هذه الآية نسخت حكم ما تقدمها اي وقع النسخ بين القاعدتين المذكورتين. ولعل هذا ليس من النسخ الاصولي، ان الضعف الذي تشير له الآية الثانية قد لا يتكرر في كل الحالات فاذا ما بقي التأهب والاستعداد الذي كان عليه المؤمنون الصابرون في الآية الاولى فما ذا يمنع من تحقق القاعدة القتالية الاولى ان يقابل المؤمن الصابر الواحد عشرة من الاعداء؟. (فبناء على ذلك فأن الحكمين في الآيتين محل البحث يرتبطان بالطائفتين المختلفتين وفي ظرفين متفاوتين)[1].

ولعل هناك تخصيصاً وليس نسخاً أصولياً، حيث كثر التعبير بالنسخ لدى المفسرين ويعنون بذلك صوراً من أساليب البيان كالتخصيص والتقييد وأمثالها وليس النسخ الاصولي.

هل يجوز فداء الأسير؟.

(١) راجع تفسير الامثل ٥/ ٤٨٧.

نعم يجوز الفداء للاسرى بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [سورة محمد: ٤]، وقد يتوجب التخلص من بعضهم اذا كان وجوده يشكّل خطراً على المصلحة العليا كما حصل مع (عقبة بن معيط) و (النضر بن الحارث)[٢].

اما قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾، فقد عبّرت هنا الآية بالاثخان عن القوة والشدة ونقول: أثخنه المرض اذا اشتد عليه، وهنا تثير الآية المباركة المصلحة العليا في المعركة وهي النصر على الاعداء، فاذا حصل الاطمئنان بالنصر فذلك يقتضي ايقاف القتال والاهتمام بأسر الاعداء حقناً للدماء وامعاناً في التمكن من النصر، فالآية المباركة تدعو الى عدم الغفلة عن الهدف الكبير في القتال وهو النصر، وبعدها يجوز الانشغال بجمع الاسرى وتوثيقهم، فالذي ينشغل بالاسرى قبل التمكن من النصر يعرّض الهدف الكبير للخطر (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا) أي تريدون المتغيّر الزائل من هذه الدنيا، (وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ)، دائمة الثواب باعزاز دينه وهزيمة اعدائه، وهذا الخطاب من أجل عدم أخذ الاسرى في ارض المعركة قبل اندحار العدو لان المسلمين حديثو عهد بالجاهلية حيث يرى بعضهم ضرورة السعي لجمع عدد اكبر من الاسرى حتى يحصلوا على الفداء.

هذا المنهج القرآني في التعامل مع العدو فيه عزة وحكمة (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، فالله سبحانه عزيز لا يقهر ومدبر حكيم لمصالح عباده، وهذا من شأنه ان يحفظ للمسلمين عزة وكرامة ورشداً.

وهناك تفسير ساذج للآية المباركة يلحق التقصير بالرسولﷺ وينسب اليه المعصية بناء على رواية ضعيفة موضوعة وهي ان الرسولﷺ استشار بعض المسلمين فمال الى فداء الاسرى ثم نزلت الآية تحثه على القتل والاثخان في الارض ولا يحق له الفداء حتى أخذ الرسولﷺ يبكي لمعصيته والعياذ بالله تعالى، وهذا تفسير مردود يرده الثابت

(٢) انظر تفسير الأمثل ٥/ ٤٩٦.

من العصمة للنبيﷺ واستحالة صدور المعصية منهﷺ والموضوع كما بيناه، فان اللوم توجّه للمسلمين الذين فضلوا جمع الاسرى ليحصلوا على الفداء (تريدون).

من جهة أخرى فهناك رواية تؤكد كراهية الرسولﷺ لأخذ الفداء حتى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجه الرسولﷺ[٣].

لولا كتاب من الله سبق:

ما المقصود بهذا الكتاب؟.

ذكر الشيخ الطوسي: اي لولا ما كتب الله في اللوح المحفوظ من انه لا يعذبهم على ذلك او من أنه يغفر لأهل بدر ما تقدم وما تأخر، او لولا ان الله سبحانه كتب: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

او ان الفدية ستحل لهم فيما بعد.

وأرجح هذه الاقوال ان الله سبحانه لا يعذّب الا بعد ان يعلمهم ويبيّن لهم وهذا عين العدل واللطف.

والمهم انه لولا مبدأ (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) لأصابكم عذاب عظيم من الله سبحانه بسبب أخذ الاسرى (فيما أخذتم) من الأسرى وليس من الفداء[٤].

فكلوا مما غنتم حلالاً طيباً:

ايها المقاتلون: ما اصبتموه قهراً من اعداء الله في الحرب من الغنائم فكلوهُ اكلاً محللاً من أطيب ما كسبتموه فهو لكم حلال طيب ولا يُلتفت الى المشككين بحلية الغنائم، وهذه قوانين تفرضها ظروف المواجهة والقتال.

وحتى لا تتمادى النفس وتغرّ حذرت الآية وأمرت بتقوى الله بتجنب المعاصي وامتثال الطاعات (وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) للمطيعين له سبحانه.

وما روي عن رسول اللهﷺ: (وجعل رزقي تحت ظل رمحي) فهذا ما لا يؤيده

(٣) التبيان للطوسي: ٥/ ١٥٨.

(٤) انظر الميزان للطباطبائي.

القرآن الكريم ولا السنة المشرفة، فليس القتال في الاسلام للارتزاق وانما هو سياسة دفاعية عن الحق والهدى.

دليل آخر على جواز الفداء:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وهم أسرى بدر اذ تقارن الآية المباركة بين قيمة الفداء الذي يتراوح بين ألف درهم من الاسير الفقير وأربعة آلاف درهم من الاسير الغني وبين محو الذنوب والمغفرة والرحمة بشرط التوبة وأن تحتوي قلوبهم على الايمان الصادق والمخلص وهنا يكون التعويض الالهي اكبر وافضل من قيمة الدراهم التي افتدوا بها أسراهم.

وقيل انها نزلت في العباس عم النبيﷺ حين أسر ففدى نفسه وابني أخويه (عقيل ونوفل) بأمر الرسولﷺ وقال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك وأنا انتظر المغفرة من ربي)[٥].

دفاع عن الرسولﷺ:

(وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ) وهذه الآية تعدّ دليلاً آخر على جواز الفداء.

جاءت الآية حتى يمضي الرسولﷺ بالفداء لمن يعلم الله في قلوبهم خيراً اي صدقاً واخلاصاً، فلو أنهم انتكسوا ثانية وأرادوا خيانتك بمخالفة ما أظهروه، فهذا أمر وقع مثله قبل غزوة بدر فخانوا الله سبحانه الخالق القادر العليم، من خلال نقض المواثيق والعهود التي جرت بينهم وبين رسولهﷺ، ولكن الله سبحانه يمهلهم (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) اذ نصر رسولهﷺ في بدر وأعزّه وأذلهم، وإن عادوا فخانوا ثانية سيمكّن الله رسوله ثانية بالنصر عليهم وهذا يخضع لعلم الله وحكمته (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

اضاءة اجتماعية:

(٥) انظر تفسير البيضاوي ١/ ٢١٧.

الاعلام الحربي بحاجة الى ادوات فاعلة لإيجاد الحماسة في قلوب المقاتلين ومن هذه الصور الخطاب المباشر للقائد بشكل خاص حيث يشرح عدالة الموقف الذي هم عليه وعدوانية الطرف الآخر، والأمل الذي يجب ان يعيشه المقاتل واسقاط عقدة الخوف وتجاوز المصالح المادية وتغليب قيم الحياة الاخروية، الدائمة على تصارع المصالح الضيقة حتى تنتفض القوى الفطرية ويتحرر المقاتل من حبائل الجبن والانشداد للدنيا فكلمة (حرّض) تتضمن هذه المعاني في الخطاب التعبوي المباشر، فقد يكون المقاتل الواحد من المؤمنين الصابرين يعادل عشرة من الاعداء وهنا حدد القرآن هذه الامكانية والقدرة في المواجهة وان أحسوا الضعف وثقل هذه المواجهة فالبديل هو ان يواجه المؤمن الصابر اثنين بدلاً من العشرة وفي ذلك لطف ورحمة من الله سبحانه.

وهنا يبرز دور الاعتقاد (الأيمان) وتأثير الملكة الاخلاقية (الصبر) في تثبيت المقاتل وتمكينه من العدو حتى لو كان من غير تكافؤ عددي، نعم الخطاب التعبوي المباشر لابد ان يركز على الهدف الاعلى المطلوب تحقيقه وهو التمكن من العدو والنصر عليه، بعد ذلك يمكن ان تتحول المواجهة الساخنة بايقاف العمليات القتالية ودعوة الطرف الآخر الى الاستسلام حقناً للدماء فتبرز ظاهرة جديدة وهي مجاميع من الأسرى، وكل السبل متاحة في معالجة مصائر هؤلاء بلحاظ ظروف المرحلة والمعركة وطبيعة تعامل العدو مع أسرى المسلمين، (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء) فيمكن اطلاقهم بفداء او بغير فداء المهم ان الهدف ليس إيقاع القتل في العدو لان الاثخان معناه التمكين من النصر والغلبة على العدو، وانما هو صورة من صور التمكين من النصر.

دروس اجتماعية مستفادة:

١. التحريض على القتال صورة من صور الاعلام الحربي هل هناك صور أخرى؟.

٢. ما الغاية من هذا التحريض؟.

٣. التكافؤ العددي في القتال كيف يمكن ان نتجاوزه من خلال الايمان بالله سبحانه والصبر على الشدائد؟.

٤. (بأنهم قوم لا يفقهون) ما وجه هذا التعليل ليكون سبباً في الانتصار؟.

٥. لا نسخ بين القاعدتين القتاليتين المذكورتين، كيف تبين ذلك؟.

٦. ما أدلة جواز فداء الاسير؟.

٧. الأثخان في الارض يعني التمكن من النصر، كيف تفسر ذلك؟.

٨. ما معنى (لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

٩. ما تفسير (خيراً) في قلوب الأسرى؟.

١٠. كيف ترد على ما روي: (وجعل رزقي تحت ظل رمحي)؟.

(٤)

آية الخمس -قواعد في القتال:

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [سورة الانفال: ٤١-٥٣].

آية الخمس (٤١ من سورة الانفال):

مضى الحديث في الآية الاولى من سورة الانفال عن غنائم معركة بدر التي أُوكل أمرها كما ذكرت الآية ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ... ﴾ بيد رسول الله ﷺ بعد اختلاف وقع بين المسلمين بشأن توزيعها فوزع رسول الله ﷺ أربعة أخماسها بين مقاتلي بدر، وترك الخمس الأخير فيها الى الاصناف التي ذكرتها آية الخمس: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

(غنم): لغة أصل صحيح واحد يدل على إفادة شيء لم يملك من قبل[٦].

والمغنم: ما يُغنم وجمعه مغانم: ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ ﴾ [سورة النساء: ٩٤][٧].

فالغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة او عمل او حرب[٨].

وقد أكدت الروايات ان القربى هم قربى الرسول ﷺ ولا تعطى لغيرهم، وحتى لا يقع لمز من ضعاف النفوس لذا قيد الأمر بقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾ وهو مذكور ايضاً في آية الانفال: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فالخطاب وان كان

(٦) انظر مقاييس اللغة.

(٧) انظر المفردات للاصفهاني: ص٦١٥.

(٨) انظر تفسير الميزان.

موجهاً بالأساس للمؤمنين لكن القرآن الكريم يثير فيهم ملكتهم الايمانية لتدفعهم للاستجابة للقرآن الكريم وامتثال أمر الرسولﷺ ان يدفع المكلف من أمواله الى هذه الاصناف:

١. لله سبحانه.

٢. للرسول.

٣. لذي القربى.

وهذه الاقسام تعطى لمن يقوم مقام النبيﷺ.

٤. اليتامى: من مات ابوه وهو صغير قبل البلوغ.

٥. المساكين: المحتاجون الذين تسكنهم الحاجة.

٦. ابن السبيل: المنقطع به في سفره.

والاقسام الثلاثة الاخيرة ان يكونوا من أهل بيت النبيﷺ لا يشاركهم الناس فيها لان الناس عُوضوا بالصدقات والزكوات التي لا تعطى الى اهل البيت عليهم السلام روى ذلك الطبري عن الامامين السجاد والباقر عليهما السلام.

ولا وجه للنسخ بين الآيتين فلا يوجد وجه تناف في موضوع واحد فآية الانفال تتحدث عن غنائم حربية وزعت أربعة أخماسها على المقاتلين هبة وهدية تكريماً. واما آية الخمس (٤١) فهي تشمل كذلك كل ما يغنمه الانسان ويكسبه من أرباح التجارات والكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك كما ذكرته كتب الفقه بسعة وشمول.

ويذكر العلامة الطباطبائي في الميزان بقوله: (وظاهر الآية انها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية، وان الحكم متعلق بما يسمى غنماً وغنيمة سواء كان غنيمة حربية مأخوذة من الكفار، او غيرها مما يطلق عليه الغنيمة لغة كأرباح المكاسب والغوص والملاحة والمستخرج من الكنوز والمعادن، وان كان مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فليس للمورد أن يخصص)[٩].

(٩) انظر تفسير الميزان، وانظر الكافي للكليني.

وقد تواترت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام في ان الخمس يختص بالله ورسوله والامام من أهل بيته، ويتامى قرابته ومساكينهم وابناء سبيلهم، ولا يختص ذلك بغنائم الحرب فذلك هبة من الله سبحانه لأهل البيت بما حرم الله عليهم الزكوات والصدقات اكراماً لأهل البيت عليهم السلام من ان يأخذوا أوساخ الناس في أموالهم كما تشير الى هذا المعنى الآية الكريمة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣] فالتطهير والتزكية يتعلقان بما لا يخلو من دنس ووسخ ونحوهما من أموال الصدقات ولم يقع ذلك في آية الخمس[١٠].

وأيدت هذا المعنى رواية الدر المنثور للسيوطي عن ابن عباس انهم قربى الرسول صلى الله عليه وآله.

ومباحث هذه الآية تفصيلاً تراجع في كتب الفقه.

وان القيد في قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ من أجل ان تتحصل الطاعة لأمر النبي صلى الله عليه وآله في توزيع الغنائم حيث قام بتوزيعها بالتساوي، ويمضي القيد كذلك: (وما أنزلنا على عبدنا) اي الايمان بالقرآن الكريم المنزّل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله والآية تشير الى يوم بدر يوم التقى الجمعان المؤمنون والمشركون وكان يوم بدر قد فرق الله فيه بين أهل الحق وبين أهل الباطل ونصر فيه المؤمنين على رغم قلتهم المشركين رغم كثرتهم (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

عودة الى أجواء المعركة:

تهيأ المسلمون للقتال فاتخذوا (الْعُدْوَةِ الدُّنْيَا) اي الجانب الاسفل الجنوبي القريب من المدينة بينما المشركون القادمون من مكة اتخذوا (الْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) اي الجانب الاعلى الشمالي من منطقة بدر القريب من مكة بينما القافلة التي كان عليها ابو سفيان وفيها تجارة قريش ورؤوس اموال كبار المشركين، كانت (أَسْفَلَ مِنكُمْ) أي خلفكم وجنوبكم واسفل من مكانكم قرب البحر حيث غيّروا طريقها حتى لا تقع في كمين بدر.

تقدير إلهي مباشر:

(١٠) راجع تفسير الميزان البحث الروائي.

(وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) وهذه من نعم الله سبحانه على المسلمين لأن المسلمين لقلتهم وضعفهم سيقع بينهم خلاف على الخروج لقتال العدو اذا ما علموا بذلك ابتداءً فهم خرجوا للقافلة ولكن الله سبحانه رتّب ذلك فوقعت المعركة الفاصلة (لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً) ليعز المسلمين ويذل المشركين بحكمته وارادته سبحانه وهذه بداية مهمة في مقتضيات التحول الاستراتيجي في حياة المسلمين.

البيّنة:

وهنا فاصل حاد بعد نصر الله للمسلمين على المشركين في معركة بدر فعلمهم بهذا التأييد يكون حجة عليهم ليكفر من كفر عن بينة وعلم وحجة، ويؤمن من آمن –لان الايمان حياة –عن بينة وعلم وحجة: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة يس: ٧٠]، وان الله (سميع) لما يقولون (عليم) بنيّاتهم، وهذه إحاطة عناية بمن يؤمن وتهديد لمن يكفر لوجود بينة التأييد الالهي والنصرة.

رؤيا النبي حجة أخرى ورفع للمعنويات القتالية:

(إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً) هكذا أخبر الرسولﷺ المسلمين انه رأى قلة من المشركين يقاتلون وليسوا كثرة. (وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ) وهذا إخبار الهي ورؤيا صادقة للنبي الاكرمﷺ مما زاد في معنويات المسلمين على المواجهة، (وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ) فلو ان الرسولﷺ رآهم كثرة لفشل المسلمون وتنازعوا واختلفوا في أمر القتال: (وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ) سلّم المسلمين من الفشل والتنازع لان الله سبحانه عليم بما في قلوب المسلمين فزاد في معنوياتهم وأزال عنهم شبح الخوف والضعف والجبن.

في اليقطة دفع آخر لرفع المعنويات:

لا زال القرآن الكريم يذكّر المؤمنين بنعمة التأييد الالهي في اليقظة حينما كانوا يرون المشركين قليلاً في أعينهم، حتى يجسروا ويتجرأوا عليهم، من جانب آخر يقلل عدد المسلمين في أعين المشركين حتى لا يستعدونا للقتال، وهنا امضاء للقاعدة الالهية: (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً) باعلاء كلمة الله وتأكيد عزة المؤمنين وذلة المشركين،

وهذا التصرف في الكون والأمور من باب ان مرجعها بيد الله سبحانه كيفما يريد (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ).

قواعد قتالية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

من هذه القواعد:

١. عدم جواز الفرار في المعركة: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [سورة الانفال: ١٦] وهذا اجراء وتكتيك داخل أرض المعركة وليس فراراً (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا) والفئة هي الجماعة من الكفار في هذه الآية، وعبّر باللقاء يعني الالتحام والمباشرة القريبة ومن شأن ذلك ان يرعب المقاتل احياناً ولكن شعار وخطاب (اثبتوا) هو عدم الفرار والهزيمة وانما ثبات قدم المقاتل في المعركة وهي احد اسرار الانتصار على العدو.

٢. (وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا) وهو الإكثار من ذكر الله في المعركة لاستنزال النصر، فذكر الله ينسي المقاتل حب الدنيا وما تركه خلفه من زوجة واولاد ومال فأن القلب لا يجتمع فيها حبان اما حبّ الله او حبّ الدنيا، وحب الله يدفع للنصر والظفر (لعلكم تفلحون)، وكلمة (كثيراً) تعني ان يتوجه المقاتل بلسانه وقلبه وفكره نحو الله سبحانه لانه الناصر الحقيقي ومجري الاسباب كلها. (وأنسِهم عند لقائهم العدو ذكر دنياهم الخداعة).

٣. إطاعة القائد (وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) لا سيما في القتال فأن عدم الطاعة يتحول الى تمرد وخسارة كبرى في تغيير موازين المعركة.

٤. عدم التنازع (وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) فالتنازع والاختلاف في ارض المعركة وحتى خلفها يورث الفشل والهزيمة وذهاب القوة، فالسفينة التي تفقد الرياح الدافعة لمسيرها نحو هدفها تتعرض لكل تداعيات ونكبات ذلك التوقف.

٥. الصبر على تحمل الصعوبات المستجدة في المعركة (وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)،

وهذه المعيّة الالهية تخفف من ضغوط وآثار هذا التداعي في مواجهة العدو، فعدم الصبر يعني الجزع وعدم ثبات القلب وبالتالي الفرار من المعركة.

٦. خلوص النية في الخروج لمجاهدة العدو بخلاف كفار قريش: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) فالاعداء المشركون حين خرجوا من مكة لمواجهة المسلمين كانوا يصدون ويمنعون من يطلب الهداية الى الله سبحانه ويفاخرون بقوتهم في مظاهر احتفالية كلها رياء وبطر وتكبر وتمرد على الله سبحانه حتى قال ابو جهل رأس الشرك: (لا نرجع حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القِيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا)[١١]. لكنهم سُقوا كؤوس المنايا وناحت عليهم نوائحهم وسقوا الموت وسط هزيمة نكراء وانتصار مدوّ للمسلمين الذين التزموا توجيهات الرسولﷺ وان كان خروجهم تعرضياً للقافلة لكن الله سبحانه له إرادة أخرى: (ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) وكل ما جرى من تدبير لهم فهو محاط بعلم الله سبحانه (وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) وهذا يحسب لقوة المسلمين.

خطر التزيين الشيطاني:

لا حرام في أصل الزينة ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ٣٢].

الشيطان يستخدم التزيين اسلوباً للايقاع بضحاياه وهو تصوير وتأثير غرائزي للاعتزاز بانفسهم وبخيلائهم الفارغة. تمثل ابليس في صورة (سراقة بن مالك) يوم بدر وزين للمشركين اعمالهم القبيحة كالشرك وحرب الرسولﷺ وانه سيكون معهم ولا يُغلبون وهو (جار) اي مجير ومعين لهم.

نكوص ابليس وفراره:

(١١) راجع تفسير الطبري.

(فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ) فحين التقى الفريقان المسلمون والمشركون للقتال فرّ ابليس ونقض كل ما زيّنه لهم لا سيما بعد ظهور مؤشرات النصر للمسلمين وكثرة القتل والاسر في المشركين، فكان يرى آثار الملائكة او كان يراهم نازلين ففرّ هو وجماعته من أرض المعركة وقال: (اني أرى ما لا ترون)، وهم الملائكة ورأى جبرئيل عليه السلام يزرع الملائكة، وقال المشركون يا سراقة لم تفرّ وتنقض عهدك؟. قال الشيطان المتمثل بصورة سراقة بن مالك من بني كنانة: (اني أخاف الله) لانه يعلم اكثر منهم شدة عقاب الله (والله شديد العقاب).

منطق مهزوم:

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ) منطق مهزوم يلوذ به المنافقون بفعل التزيين والوسوسة والكبرياء والغرور الذي هم عليه، فادّعوا ان المسلمين قد غرّهم وخدعهم دينهم لأنهم دخلوا مجالاً لا طاقة لهم به لكن القرآن الكريم يرد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فالله غالب على أمره ناصر لمن يتوكل عليه حكيم في فعله وما يوجّه به المتوكلين عليه سبحانه.

تذكير آخر للرسول صلى الله عليه وآله بهذه النعم المتتالية في بدر:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلائِكَةُ):

ولو رأيت ما حصل بهؤلاء الاعداء على يد الملائكة لرأيت أمراً فظيعاً كانوا يُضربون بحديد من نار على وجوههم وظهورهم ويخاطبونهم (ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ)، (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) وهذا استحقاق جزائي ليس فيه ظلم او حيف فأنّ الله سبحانه يتجلى عن ظلم عبيده مطلقاً (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ).

اضاءة اجتماعية:

الانفال التي حصل عليها المسلمون وهي ما غنموه في معركة بدر من المشركين وان اختلف المسلمون فيما بينهم بشأنها لكن أمرها اوكله الله الى رسوله صلى الله عليه وآله فوزعها بين

مقاتلي بدر وأبقى على الخمس الاخير منها بعد ان قسمها خمسة أخماس، وهذا القسم الاخير تتعلق به الاصناف التي ذكرتها آية الخمس (٤١) من سورة الانفال، واختصاص قربى رسول الله ﷺ بها فأن الناس عوضوا بالصدقات والزكوات التي لا ينبغي لأهل البيت عليهم السلام اخذها، وفيها إكرام لهم وهكذا ينظم القرآن الكريم العصب الاقتصادي حتى لا يُحرم احد منه في المجتمع، وليس المقصود من ذلك ايجاد طبقية مميزة على غيرها فهم يأخذون الخمس كما أن غيرهم يأخذ من الزكوات وموارد الانفاق الاخرى، وروي ذلك في كتب المسلمين.

معركة بدر تطل من جديد:

ولأهمية هذا التحوّل الاستراتيجي في طريق ذات الشوكة لإحقاق الحق وابطال الباطل عادت آيات الانفال تتحدث عن سير المعركة وقد ركزت على جوانب مؤثرة في صياغة مجتمعية عزيزة بينما أورث الذل المشركون ومن وراءهم:

١. التدخل الالهي المباشر في ايجاد هذه المعركة (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد)، وهذا التدخل ينبيء عن معية الهية للمؤمنين وتسديد لهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ويدخل في ذلك رؤيا النبي ﷺ التي قصها على المسلمين لتثبيتهم وحتى من خلال واقعهم حينما يرون العدو قلة، وهذا لطف من الله سبحانه.

٢. بيان الحجة والدليل حتى ينكشف السبيل: فيحيا الانسان او يموت وانما يكون ذلك عن بينة ودليل حتى يضيع في وهم او خيالات غير واقعية وهذه المنهجية الربانية في توجيه سلوك الانسان تتأتى من خلال اللطف و التأييد الالهيين.

٣. وفي هذه المواجهات الساخنة المباشرة مع العدو هناك ضوابط وقواعد حرصاً على ثبات المقاتل ومن اجل ايقاع الهزيمة في العدو وهذه القواعد ليس فيها تعد او تجاوز على قيم الشريعة وحق الآخر، لذا ركزت على توفر خلوص النية وعدم الانغماس في حب الدنيا من خلال ذكر الله كثيراً وتجنب البطر والرياء حتى لا يقع المسلم في فخاخ التزيين الشيطاني، وضرورة اطاعة القائد وعدم التنازع والصبر على شدائد

الحرب وأتعابها، فهذه الضوابط من شأنها ايجاد كتلة بشرية تصمد بقناعة وايمان مهما حمي وطيس الحروب أو عظمت شدائدها.

دروس اجتماعية مستفادة:

١. لا نسخ بين الآية الاولى والآية الحادية والاربعين من سورة الانفال لماذا؟.

٢. أهل البيت عليهم السلام لا تعطى اليهم صدقات الاموال.

٣. الاصناف المستحقة للزكوات وموارد الانفاق الاخرى تشكل نظاماً واسعاً في الضمان الاجتماعي تقوده الدولة.

٤. يحرص القرآن الكريم على ان يضع الانسان على البينة والدليل ليحيا او يهلك عليها. كيف يدخل ذلك في البناء العقائدي للانسان؟.

٥. لا يجوز الفرار من المعركة: فما هي القواعد التي تعين المقاتل على الثبات فيها؟.

٦. كيف ندفع خطر التزيين الشيطاني ولا نكون من ضحاياه؟.

٧. لماذا فرّ ابليس من المعركة؟. وما خطابه الجديد بعد ان كان جاراً للمشركين ومعيناً لهم.

٨. (عذاب الحريق) كانت له صورة في معركة بدر كيف تقرأها؟.

(٥)

سنن ومواقف

دأب آل فرعون:

(القرآن الكريم يدعو الى حقن الدماء وحفظ المواثيق ونبذ الخيانة):

﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ

لَا يَنقُضُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [سورة الانفال: ٥٢ -٥٩].

الدأب:

هو العادة والطريقة فتقول هذا دأبه ودينه وديدنه[١٢]، وقد شبهت الآية مصير أعداء الله في بدر بما آل اليه حال آل فرعون اذ أغرقوا وأهلكوا بكفرهم بآيات الله وجحودها رغم بيانها ووضوحها وكذلك أمم الانبياء الأخرين.

السنة الالهية في العقوبات الدنيوية:

هناك قاعدة: (ان الذنوب تتسبب بانزال العذاب) قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام: (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال)، وهنا تتحدث الآية عن (آل فرعون) وهم أتباعه الذين دعاهم الى ربوبيته وساروا على نهجه والتزموا طريقته، لذا فالأخذ الالهي لهم بالعذاب الدنيوي كان قوياً بتقدير: ان اخذ الله قوي (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)، فالقوي والشديد كلاهما صفة لمقدر محذوف: (أخذ الله).

قاعدة الاستحقاق:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)، فالذين يبدلون نعمة الله بالكفر كما فعل كفار قريش ومن قبلهم آل فرعون انما استحقوا العقوبة والعذاب بهذا الدليل فالله عدل مطلق ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٢] والله سبحانه ليس بحاجة ذلك (انما يحتاج الى الظلم الضعيف)[١٣].

ثم يعود القرآن ليؤكد هذا المعنى: (فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ) أي كفار قريش في معركة بدر (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) بعذاب الاستئصال (الغرق) (وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)، أي كفار

(١٢) التبيان للطوسي ٥/ ١٣٩.

(١٣) الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة.

قريش وآل فرعون بارتكاب المعاصي وترك الطاعات.

من هم شرّ الدواب؟.

تشير الآية الكريمة الى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ وهم بنو قريضة وعلى رأسهم كعب بن الأشرف وأصحابه الذين عاهدهم الرسولﷺ ألا يحاربوه ولا يعينوا المشركين لكنهم نقضوا هذا العهد وأعانوا المشركين بالسلاح في بدر واعتذروا وعادوا الى نقض العهد مرة أخرى في معركة الخندق، فهؤلاء لا يخافون الله في نقض العهود فهم اكثر شراً من كل الدواب التي تدبّ على الارض (الذين كفروا) باصرار (فهم لا يؤمنون) لان هذا الاصرار على الكفر يمنع من الايمان.

كيف تقع هذه الظاهرة على آخرين؟.

ان تكرار قوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ هو للتشنيع بهم وتوبيخهم، وهذه المساحة الواسعة في تكذيب الاقوام لأنبيائهم تؤشّر الى امكانية وقوع هذه الظاهرة وتكرارها في كل زمان ومكان ولم تتوقف على تلك الاحداث، فشر الدواب يمكن ان نراه في مدنية متقدمة بمادياتها لان القيم لا تحكمها القوانين المادية ولا تتحكم بها وانما العكس هو الصحيح ان تتأثر المدنيات والتطور المادي للانسان بقيمه العليا والفطرة غير الملوثة والاعتقاد الحق والتوحيد الخالص.

فالانسان هو الانسان والشرائع هي الشرائع المنزلة من السماء فهذه ظواهر تتكرر وسنن ماضية في الخلق لا تتوقف باعتبارها قانوناً مبنياً على العدل لا الجور.

قاعدتان استباقيتان:

١. **(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ).**

يا رسول الله ان ظفرت بهم في الحرب فاجعلهم عبرة لمن خلفهم ممن نقضوا العهد حتى يدخل الرعب فيهم ولا يتمكنوا من قتالك، فان القضاء عليهم ان ظفرت بهم يكون سبباً في هروب وتشتت وتفرّق الذين يعينونهم من خلفهم داخل الميدان او خارجه (لعلهم يذكرون) فيعودون الى رشدهم، فالرعب هو احد الاسلحة المؤثرة التي

جعلها الله لرسوله على اعدائه وخصّه به، قال رسول الله ﷺ: (أعطيتُ خمساً لم يُعطهن أحد قبلي: نُصِرتُ بالرعب...)[١٤].

فالله سبحانه يملأ قلوب اعداء رسول الله ﷺ بالرعب ما إن يقبل عليهم ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥١].

فهذا السلاح (الرعب) يهزم العدو ويقلّل القتل.

٢. (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ).

يا رسول الله: ان أحسست بدلائل وإمارات ظاهرة ممن عاهدت منهم خيانة للعهد، ونقضاً له فقل لهم: قد نبذتُ اليكم عهدكم وهذا اعلام لهم (على سواء) اي على استواء في العلم بهذا النقض بينك وبينهم، وليس غدراً لهم لان قتالهم والعهد قائم يُعدُّ خيانة وغدراً وهذا لا يريده الله سبحانه ثم تؤكد الآية اللاحقة ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ على ضعف هؤلاء وان سبقوا وفلتوا من القتل او الأسر يوم بدر فهم لا يعجزون ارادة الله ومشيئته، وعليه فلا يظنن هؤلاء الذين كفروا بذلك.

اضاءة اجتماعية:

مصائر الأمم والافراد تخضع عادة لقوانين وسنن، لذا يمكن تفسير هذه المصائر من خلال قواعد شاخصة وقد شهد القرآن الكريم مساحات واسعة لبيان هذه النتائج التي ينتهي اليها الافراد والجماعات وقد عبّر القرآن الكريم في حديثه عن الظاهرة الفرعونية بـ: (دأب آل فرعون) وهي الطريقة التي كانوا عليها مداومين اذ الذنوب تتسبب بانزال العذاب، من جهة أخرى فان هؤلاء حينما يداومون على هذا النهج انما يشكّلون جهة وجماعة تنسب لراع ومؤسس وتسودها افكار وتنتظمها مواقف توحّد وجهتها فتزيدها هلاكاً وخسراناً حينما تكون الذنوب محوراً فيها (فأهكناهم بذنوبهم)، وهنا لابد ان يبحث الضحية عن سبب الهلاك فيجده في الظلم بعينه (وكل كانوا ظالمين) لكنهم لا يتعظون حتى لو عرفوا ذلك فيستمرؤون ذنوبهم ولو كانت نقضاً للعهود والمواثيق

(١٤) البخاري ومسلم.

ويعيشون آثارها التدميرية فيستحقون ان يكونوا شر الدواب التي لا تفقه ولا تعي ما يراد منها. هذه الظاهرة لا تتوقف على جماعة ولا على مكان او زمان محددين انما تحصل حينما تتحقق شروط حصولها وهكذا يبقى النص القرآني رقيباً وحاكماً من غير حصر مكاني او زماني.

القرآن يدعو الى حقن الدماء وحفظ المواثيق ونبذ الخيانة:

فالخطاب القرآني الى رسول الله ﷺ ان يزيد في ارعاب العدو (فشرد بهم من خلفهم) حتى تضعف مقاومة من وراءهم ويكونوا عبرة وسبباً في هروبهم لينتهي النزال بأقل الخسائر وتحقيق النصر للمسلمين، من جهة اخرى يؤكد الخطاب القرآني على ضرورة اعلام الطرف الآخر بالغاء العهد حينما ينقضونه والا يتحول الموقف الى خيانة، ما اروع هذا الدين الفطري المتحضر الذي يحقن الدماء ويحترم المواثيق وينبذ الخيانة.

دروس اجتماعية مستفادة:

١. متى تتحول العادة والطريقة الى دأب؟.
٢. قال الامام الصادق عليه السلام: (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال)، كيف تقرأ ذلك في ضوء السنن والقوانين؟.
٣. قال الله تعالى: (وان الله ليس بظلام للعبيد) كيف تقرأ ذلك في بيان قاعدة استحقاق العذاب من غير ظلم.
٤. من هم شر الدواب؟. ولماذا وصفوا بذلك؟.
٥. القيم العليا لا تحكمهـــا القوانين المادية ولا تتحكم بها المدنيات المادية وان تطورت.
٦. القرآن الكريم يدعو الى حقن الدماء وحفظ المواثيق ونبذ الخيانة) اقرأ ذلك من خلال الآيتين الكريمتين ٥٧-٥٨ من سور الانفال.